أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

(١٩٢٢ – ٢٠٠٩م)

مؤرخاً للحروب الصليبية

إعداد

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

بجامعتي عين شمس والشارقة

يتناول هذا البحث بالدراسة، التعريف بالمؤرخ الرائد أ.د. سعيد عاشور(١) . وإسهامه في مجال تاريخ الحروب الصليبية؛ من أجل توضيح مكانه ومكانته بين مؤرخي تلك المرحلة الفارقة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.

وقد ولد سعيد عبد الفتاح عاشور – الذي هو في الأصل من مدينة طنطا – في حي الروضة بالقاهرة في يوم ٣٠ يوليو ١٩٢٢م بعد ثلاث سنوات فقط من اندلاع ثورة ١٩١٩م الخالدة ضد الاحتلال البريطاني الغاشم لأرض الكنانة، وقد نشأ في أسرة علمية. إذ أن والده أ.د. عبد الفتاح عاشور عمل أستاذاً بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة، وكان لذلك أثره البالغ على تكوين شخصيته من خلال كونه ابناً لأستاذ جامعي بارز، وعندما بلغ مؤرخنا سن السادسة، أرسله والده إلى مدرسة المنيرة الابتدائية، وحصل على شهادة تلك المرحلة عام ١٩٣٤، ثم التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية، ثم مدرسة القبة الثانوية، ونال شهادة الثقافة العام عام ١٩٣٩م، وفي العام التالي أي عام ١٩٤٠م، نال شهادة التوجيهية، والتحق من بعد ذلك بكلية الآداب – جامعة القاهرة، وتحديداً قسم التاريخ، ونال درجة الليسانس عام ١٩٤٤م، وقد درس في القسم المذكور على أيدي نخبة من كبار المؤرخين المصريين والمستشرقين، ومن أمثلتهم؛ أ.د. حسن إبراهيم، وأ.د. عزيز سوريال عطية، وزكي علي، ومحمد شفيق غربال، وجوجيه. ودايتون، ولا شك في أنهم أثروا فكره من خلال تنوع توجهاتهم الفكرية، ومناهجهم في البحث التاريخي.

من المراحل المهمة في حياة ذلك المؤرخ الرائد، سفره إلى بغداد فى رفقة أستاذه أ.د/ محمد مصطفى زيادة(٢) من أجل تأسيس أول جامعة بالعراق وذلك عام ١٩٤٦م حيث مكث هناك عامين أمضاهما في البحث والإطلاع وألتقى بالمؤرخين والمثقفين العراقيين الخبراء بالتراث العربي في العصور الوسطى.

سجل ذلك المؤرخ رسالته للماجستير تحت عنوان قبرص والحروب الصليبية تحت إشراف أستاذه المذكور، وبالفعل ناقشها عام ١٩٤٩م بعد أن أنفق خمس سنوات في دراسته.

من بعد ذلك، إتجه مؤرخنا إلى مواصلة الدراسة مع أ.د. محمد مصطفى زيادة الذي امتاز بالدقة العلمية والتحليل والرغبة في التجديد، ولذلك سجل معه موضوعاً للدكتوراه بعنوان: "المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م" وبالفعل تمكن من إنجازها عام ١٩٥٥م بعد ست سنوات من البحث والتقصى في بطون المصادر التاريخية خاصةً أن الموضوع المذكور كان جديداً تمامً في مجال البحث التاريخي في مصر والعالم العربي، على نحو دل على ما تمتع به ذلك المؤرخ من صبر، وجَلَد، ودقة، وبحث متأنٍ وراء الإشارات المتناثرة هنا وهناك، وتعد الدراسة المذكورة رائدة في مجال التاريخ الاجتماعي وكانت فاتحة العديد من الدراسات التالية التي تناولت العصر المملوكي بحيث من الممكن وصف مؤرخنا بأنه رائد الدراسات التاريخية المملوكية، كما هو الحال بالنسبة لوصفه في مجال تاريخ الحروب الصليبية، وتنافس مؤلفاته في المجالين المذكورين دراسات غربية خلال نفس المرحلة الزمنية لإصدارها.

مما يُذكر عن هذا المؤرخ الرائد، عمله كمدرس لتاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ في كلية الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٥٥م، ثم أستاذاً مساعداً عام ١٩٦٠م، ثم صار أستاذاً عام ١٩٦٧م، إلى أن أصبح أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى عام ١٩٦٩م.

أشرف مؤرخنا على نحو (٥٠) رسالة للماجستير والدكتوراه، ومن تلاميذه أ.د. علية الجنزوري، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف صبرة، وأ.د. عبد الحفيظ محمد علي، أ.د. أحمد رمضان أحمد، د. سر الختم عثمان، أ.د. محمود الحويري، أ.د. قاسم عبده قاسم، أ.د. محمد محمد أمين، د./ محمد فتحي الشاعر، أ.د. محمد محمد مرسي

الشيخ، أ.د./ عثمان عشري، أ.د. عادل عبد الحافظ، أ.د. علي السيد على، وقد انتشروا في كافة أنحاء الجامعات المصرية، على نحو دل بجلاء على قدرته على تكوين مدرسة قائمة بذاتها لدراسات تاريخ العصور الوسطى تركت أثرها العلمي العميق على الأجيال التالية بصورة لم تتأت لأي مؤرخ عربي آخر في نفس التخصص العلمي دونما أية مبالغة.

لقد أثرى مؤرخنا الرائد المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات التي تلفت النظر كماً وكيفاً، ويمكن إجمالها على النحو التالي:

أولاً: الكتب:

١- النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة (بالاشتراك مع أ.د. محمد أنيس، ط. القاهرة ١٩٥٦م.

٢- فضل العرب على الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٥٧م.

٣- قبرص والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٥٧م.

٤- الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٥٩م.

٥- الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٥٩م.

٦- مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ط. القاهرة ١٩٥٩م.

٧- النهضات الأوروبية في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

٨- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط. القاهرة ١٩٦٢م.

٩- الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مجلدان، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

١٠- الظاهر بيبرس. سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

١١- المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

١٢- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، سلسلة المكتبة الثقافية، ط. القاهرة ١٩٦٤م.

١٣- العصر المماليكي في مصر والشام، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

١٤- الناصر صلاح الدين، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

١٥- السيد البدوي شيخ وطريقة، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٦م.

١٦- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ط. القاهرة ١٩٦٩م.

١٧- مصر في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٠م.

١٨- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

١٩- أوروبا العصور الوسطى، ج١، التاريخ السياسي، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ج٢، النظم والحضارة، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

٢٠- بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٢١- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية (بالاشتراك مع أحمد مختار العبادي وسعد زغلول عبد الحميد)، ط. الكويت ١٩٨٦م.

ثانياً: البحوث والمقالات:

١- "الإمبراطور فردريك الثاني والمشرق العربي"، المجلة التاريخية المصرية، م (١١) عام ١٩٦٣م.

٢- "بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية" مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، م (٢٦) ج(١)، ج(٢)، عام ١٩٦٤م.

٣- "الصلات التاريخية بين مصر والشام في العصر الإسلامي"، مجلة العلوم، العدد (٥) عام ١٩٦٤م.

٤- مدينة السويس ومنطقتها منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث، ضمن كتاب السويس، ط. القاهرة ١٩٦٦م.

٥- "سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى"، المحاضرات العامة للجمعية المصرية للدراسات التاريخية، الموسم الثقافي ١٩٦٨/٦٧م، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

٦- "بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى"، المجلة التاريخية المصرية، م(١٤)، عام ١٩٦٨م.

٧- "محمد مصطفى زيادة"، المجلة التاريخية المصرية، م(١٦) عام ١٩٦٩م.

٨- "شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية"، المجلة التاريخية المصرية، م(١٦)، عام ١٩٦٩م.

٩- "صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى"، المجلة التاريخية المصرية، م(١٨)، عام ١٩٧١م.

١٠- "كتاب صبح الأعشى مصدراً لدراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى"، ضمن كتاب أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، ط. القاهرة ١٩٧٣م.

١١- ابن تغري بردي بين مؤرخي مصر في القرن التاسع الهجري، ضمن كتاب المؤرخ ابن تغري بردي، ط. القاهرة ١٩٧٤م.

١٢- "الفلاح والإقطاع في عصر الأيوبيين والمماليك"، ضمن كتاب الأرض والفلاح في مصر على مر العصور، ط. القاهرة ١٩٧٤م.

١٣- "الارتباط بين التوسع السياسي والديني"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

١٤- "عوامل نجاح الدعوة المبكرة للدولة الفاطمية"، ضمن كتاب الدورة الثانية لملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية، ط. تونس ١٩٧٧م.

١٥- "التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك في ضوء كتابات المؤرخ ابن إياس"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

١٦- "التعليم العالي في العصور الوسطى، دراسات مقارنة بين العالمين الإسلامي والمسيحي"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

١٧- "اليهود في العصور الوسطى – دراسة مقارنة بين الشرق والغرب"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

١٨- "الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

١٩- "دراسات حول كتاب الأحكام السلطانية للماوردي"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢٠- "الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢١- "ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢٢- "دراسة حول كتاب الكامل في التاريخ لإبن الأثير"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢٣- التعليم العالي في العصور الوسطى: دراسات مقارنة بين العالمين الإسلامي والمسيحي"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢٤- "الفيوم في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢٥- "مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢٦- "المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٧م.

٢٧- "المماليك .... الإسلام"، العربي، العدد (٢٧٧) عام ١٩٨١م.

٢٨- مكانة الإسلام في برامج كليات الطلب، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط. الكويت ١٩٨٢م.

٢٩- "المماليك رواد النهضة الثانية في الإسلام"، العربي، العدد (٢٨١)، عام ١٩٨٢م.

٣٠- "مصر معبراً للثقافة الإسلامية في حوض البحر المتوسط"، ضمن كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط، إشراف أ.د. رؤوف عباس، ط. القاهرة ١٩٨٦م.

٣١- "بعض أضواء جديدة على المؤرخ تقي الدين المقريزي"، عالم الفكر، م(١٤)، عدد (٢)، ط. الكويت ١٩٨٦م.

٣٢- "مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك"، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٣٣- "المجتمع الشامي في العصر العثماني بين العصور الوسطى والحديثة"، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٣٤- "الطب الإسلامي في الجامعات الأوروبية في عصر صدر النهضة"، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٣٥- "البحر المتوسط شريان الثقافة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٣٦- "أضواء على حركة المرأة"، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٣٧- "الإسلام والتعريب"، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٣٨- "حطين وقائع وعبر"، العربي، العدد (٣٤٤)، عام ١٩٨٧م.

٣٩- "مراجعات لكتابات بعض المستشرقين الحديثة عن الإسلام وحضارته"، ضمن كتاب بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

٤٠- "بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره"، ضمن كتاب ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ميلاده، ط. دمشق ١٩٨٧م.

٤١- "البنية البشرية لجيوش صلاح الدين"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، م(١٠)، عدد (٣٧)، عام ١٩٩٠م.

٤٢- "مع البقايا الصليبية الأخيرة في بلاد الشام"، العربي، العدد (٣٩٧)، عام ١٩٩١م.

٤٣- "العلم بين المسجد والمدرسة"، ضمن كتاب ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين، إعداد أ.د. عبد العظيم رمضان، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.

هكذا، فنحن أمام مؤرخ بارز أصدر نحو (٢١) كتاباً و (٤٣) بحثاً، ناهيك عن تحقيقاته، ولا يتأتى هكذا العدد بين الأعمال العلمية إلا لمؤرخ قوي الإرادة صاحب رسالة يعرف تماماً قيمة الوقت الذي هو أثمن ما في الحياة فأحسن استغلاله لإصدار "مكتبة" في مجال دراسات العصور الوسطى عاشت بعد رحيله بل أكدت بقاءه في الساحة العلمية.

أما في مجال التحقيق، فيذكر له الإسهامات التالية:

١- يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

٢- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثالث، والجزء الرابع في ستة مجلدات، ط. القاهرة ١٩٧٠-١٩٧٣م.

٣- ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

٤- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، بالاشتراك مع أ.د. حسنين ربيع، ط. القاهرة.

٥- ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ط. القاهرة ١٩٨٥م.

٦- النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢، ط. القاهرة.

أما في الترجمة فيذكر له ترجمة كتاب:

كريستوفر دوسون، تكوين أوروبا، بالاشتراك مع محمد مصطفى زيادة، ك. القاهرة ١٩٦٢م.

وبعد رحلة عطاء علمي متدفق، رحل المؤرخ الرائد عام ٢٠٠٩م عن عمر بلغ (٨٧) عاماً فأسف على رحيله تلاميذه وزملاؤه الذين وجدوا فيه صورة صادقة للمؤرخ البارز صاحب الرسالة العلمية.

واقع الأمر، تدل المؤلفات السابقة، سواءً كانت كتباً أو بحوثاً على غزارة عطاء ذلك المؤرخ الرائد، وتعدد مجالات تأليفه التاريخي، إلا أن إسهامه في مجال تاريخ الحروب الصليبية يحتل مكانة خاصة بين تلك المؤلفات، وهي تتمثل تحديداً في:

تجدر الإشارة، إلى أن كتابه بعنوان: الحركة الصليبية يعد – وبحق – عمدة الدراسات التاريخية العربية في مجاله، وقد صدر عام ١٩٦٣م عندما كان مؤلفه لا يزال أستاذاً مساعداً، ويُقال أنه أنفق خمسة أعوام من عمره في تأليفه، محققاً بالتالي أمنية أستاذه المؤرخ الرائد أ.د. محمد مصطفى زيادة الذي كتب عام ١٩٦١م مؤكداً خلو المكتبة العربية من كتاب عن الحروب الصليبية يوازي ما نجده لدى رينيه جروسيه Rene Grousset في كتابه Histoire de Croisades، أو كتاب السير ستيفن/ رنسيمان Sir Steven Runciman بعنوان: A History of The Crusades (٣) وبالتالي استطاع أن يقدم للمكتبة العربية ذلك الكتاب الموسوعي الفريد الذي عاش بعد مؤلفه، وصار مجالاً للباحثين في مجال تاريخ الحروب الصليبية في العالم العربي بصورة تدعونا للتأمل في حجم ذلك الإنجاز العلمي البارز.

بصفة عامة، من الضروري بمكان تأمل الكتاب المذكور بعمق من أجل البحث في رؤية مؤلفه لتلك الأحداث الصاخبة في علاقات الشرق بالغرب في

العصور الوسطى، وفي نفس الحين نحاول الإجابة عن تساؤل ملح وهو: لماذا تميز هذا الكتاب عن غيره من المؤلفات ولا يزال الكتاب العمدة في مجاله بعد (٥٢) عاماً من صدوره؟!!.

قسم مؤرخ الحركة الصليبية كتابه على النحو التالي:

الباب الأول: فلسفة الحركة الصليبية.

الفصل الأول: ماهية الحركة الصليبية.

الفصل الثاني: بواعث الحركة الصليبية.

الباب الثاني: المسلمون والمسيحيون حتى نهاية القرن الحادي عشر.

الفصل الأول: الإسلام والمسيحية.

الفصل الثاني: الأتراك وإحياء قوة المسلمين.

الفصل الثالث: الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر.

الباب الثالث: الحملة الصليبية الأولى.

الفصل الأول: الدعوة للحملة.

الفصل الثاني: الأمراء الصليبيون والدولة البيزنطية.

الفصل الثالث: الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة الروم.

الفصل الرابع: تأسيس إمارة الرها.

الفصل الخامس: الحملة الصليبية الأولى وسلاجقة فارس.

الباب الرابع: سقوط بيت المقدس.

الفصل الأول: الطريق إلى بيت المقدس.

الفصل الثاني: تنظيم الفتح.

الفصل الثالث: إتمام غزو فلسطين.

الفصل الرابع: بطرفية بيت المقدس.

الباب الخامس: تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية.

الفصل الأول: النزاع بين بلدوين وبطرق بيت المقدس.

الفصل الثاني: بلدوين الأول والفاطميون.

الفصل الثالث: بلدوين الأول والأتراك.

الفصل الرابع: سياسة بلدوين الأول.

الباب السادس: قيام إمارة طرابلس.

الفصل الأول: ريموند الصنجيلى والصليبيون.

الفصل الثاني: ريموند وتأسيس إمارة في الشام.

الفصل الثالث: أعمال وليم جوردان.

الفصل الرابع: برترام وظهور إمارة طرابلس.

الباب السابع: إمارة أنطاكية والبيزنطيون.

الفصل الأول: بوهيموند وتأسيس إمارة أنطاكية.

الفصل الثاني: وصاية تنكرد على أنطاكية.

الفصل الثالث: عودة بوهيموند إلى حكم أنطاكية.

الفصل الرابع: الفترة الثانية لحكم تنكرد في أنطاكية.

الفصل الخامس: روجر الأنطاكي.

الباب الثامن: إمارة الرها والمسيحيون الشرقيون.

الفصل الأول: بلدوين دي بورج وإمارة الرها.

الفصل الثاني: عودة بلدوين الثاني لحكم الرها.

الفصل الثالث: مودود وإمارة الرها.

الفصل الرابع: تدهور إمارة الرها.

الباب التاسع: الصليبيون في أوج مجدهم.

الفصل الأول: حياة الصليبيين ونظمهم في الشام.

الفصل الثاني: بلدوين الثاني ملك بيت المقدس.

الفصل الثالث: فولك الأنجوي ملك بيت المقدس.

الفصل الرابع: القوى الإسلامية في الشام والعراق.

الفصل الخامس: الإمبراطورية البيزنطية والصليبيون في الشام.

الباب العاشر: بداية النهاية.

الفصل الأول: التحالف بين الصليبيين وحكام دمشق.

الفصل الثاني: سقوط الرها.

الفصل الثالث: تصدع الحلف بين دمشق والصليبيين.

الفصل الرابع: الحملة الصليبية الثانية.

الفصل الخامس: عصر بلدوين الثالث.

الباب الحادي عشر: الجبهة الإسلامية الموحدة.

الفصل الأول: وحدة المسلمين في بلاد الشام.

الفصل الثاني: عودة البيزنطيين إلى الشام.

الفصل الثالث: مصر بين نور الدين وعموري الأول.

الباب الثاني عشر: الناصر صلاح الدين.

الفصل الأول: صلاح الدين وتوطيد مركزه في مصر.

الفصل الثاني: صلاح الدين وتأمين الوحدة الإسلامية.

الفصل الثالث: حطين واسترداد القدس.

الباب الثالث عشر: الحملة الصليبية الثالثة.

الفصل الأول: إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا في الشرق.

الفصل الثاني: ريتشارد قلب الأسد في الشرق.

الفصل الثالث: الشرق الأدنى في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر.

الباب الرابع عشر: انحراف الحركة الصليبية.

الفصل الأول: الحملة الصليبية الرابعة.

الفصل الثاني: أحوال الصليبيين بالشام.

الفصل الثالث: الحملة الصليبية الخامسة في مصر.

الباب الخامس عشر: الصليبيون بين مصر والشام.

الفصل الأول: فردريك الثاني واسترداد بيت المقدس.

الفصل الثاني: بلاد الشام في الربع الثاني من القرن الثالث عشر.

الفصل الثالث: الحملة الصليبية السابعة على مصر.

الباب السادس عشر: المماليك وطرد البقايا الصليبية من الشام.

الفصل الأول: لويس التاسع في الشام.

الفصل الثاني: المماليك والمغول.

الفصل الثالث: نهاية الصليبيين بالشام.

الباب السابع عشر: خاتمة الحركة الصليبية.

الفصل الأول: الدعاة الصليبيون وجهودهم.

الفصل الثاني: الحروب بين المماليك والبقايا الصليبية في الشرق الأدنى.

الفصل الثالث: الحرب الصليبية في شمال أفريقية وأوروبا.

الفصل الرابع: أثر الحروب الصليبية في الشرق الأدنى.

الفصل الخامس: أثر الحروب الصليبية في الغرب الأوروبي.

هكذا، جاءت خطة ذلك العمل العلمي الرائد محكمة وشملت (١٧) باباً احتوت بدورها على (٧٣) فصلاً، وفي تقديري أن تلك الخطة المحكمة عدلها مؤلفها عدة مرات على نحو جعلها على هذا النحو من الشمول، والاتساع، والتنوع، وإذا ما أدركنا أنها وضعت ، عندما لم تكن هناك في الساحة العربية عمل علمي يمثل ذلك التفصيل، وعلى المستوى الدولي لم يكن هناك سوى عملين موسوعيين، في صورة ما ألفه الفرنسي رينيه جروسيه Rene Grousset، والبريطاني السير ستيفن رنسيمان Sir Steven Runciman، أدركنا أهمية تلك الخطة وتنوعها وتفردها وعدم وجود

تكرار فيها، وقدرة صاحبها على الالتزام بها في معرض تناوله لذلك الموضوع البالغ التنوع والتشعب والاتساع من خلال تعدد القوى المحلية والإقليمية والدولية التي شاركت في المشروع الصليبي.

لقد أدرك أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور أهمية دراسة تاريخ الحروب الصليبية، ولذلك نجده يقرر ما نصه: "ترجع أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لنا إلى أنها تشكل تجربة في تاريخ العروبة والإسلام جميعاً، سواءً في المشرق أو في المغرب، وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج، وإنما هي تجربة كبرى خطيرة مليئة بالدروس والعظات، مما يتطلب منا أن نتأملها ونبحثها في كل وقت – الآن وفي المستقبل – لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، وبذلك نحفظ للعرب حقوقهم وللعروبة كيانها، ونضمن لأبنائنا حياة حرة كريمة في وطننا العزيز"(٤).

والنص المذكور يدل بجلاء على إدراك مؤرخنا لأهمية التاريخ في صنع الحاضر والمستقبل، وإنه ليس مجرد سرد للأحداث بل مدرسة كبرى تتعلم منها البشرية عموماً على مر العصور.

من المهم هنا البحث في مميزات هذا العمل العلمي الريادي على نحو جعله يملك هذه الاستمرارية الملفتة للانتباه، ومن الممكن إجمال مميزات الحركة الصليبية على النحو التالي:

أولاً: غزارة التفاصيل بصورة غير مسبوقة، فلأول مرة نجد كتاباً شاملاً للعديد من التفاصيل في مختلف موضوعات عصر الحروب الصليبية في الشرق على مدى (١٤٢٠) صفحة من القطع المتوسط وبالتالي جاء كتابه في مجلدين ضخمين ولا تزال طبعاته تتوالى حتى بعد رحيل مؤلفه.

ثانياً: توازن عناصر الكتاب، وعدم وجود تناقض بين جزئياته، مما يدل على خبرة عريضة لمؤلفه، ومراجعة لما كتب لعدة مرات، وتفحصه ونقده الذاتي لما ألفه بصورة جعلت من كتابه عملاً علمياً محكماً في بنائه وقد تأكد ذلك بعد عقود من صدوره.

ثالثا: براعة مؤلفه في التعامل مع المصادر التاريخية العربية خاصة في العصرين الأيوبي والمملوكي وقدرته على انتقاء ما يفيد موضوعه بخبرة علمية كبيرة يُحسد عليها، على نحو أعطى المجلد الثاني مذاقاً علمياً خاصاً دون أن يفهم من ذلك التقليل من قيمة المجلد الأول لما فيه من جهد علمي ريادي.

رابعاً: تزويد الكتاب بعدد من الخرائط(٥)، وكذلك سرد بأسماء المواقع الجغرافية كما وردت في المصادر العربية وكذلك الصليبية(٦)، على نحو قدم من خلاله عملاً ريادياً للمؤرخين العرب الذين تخصصوا في مجال الحروب الصليبية وبصورة لم نجدها لدى مؤرخ سابق مما دل على ريادة مؤلف الحركة الصليبية في الجانب المذكور.

كما أنه قدم عدداً من الجداول بأسماء الحكام الذين عاصروا الحروب الصليبية سواءً من المسلمين أو الصليبيين أو البيزنطيين(٧)، وزاد الأمر من خلال تسنين لأهم الأحداث التاريخية على مدى الأعوام من ١٠٥٥ حتى عام ١٤٩١م(٨)، ثم كشاف بالأعلام (٩) أعان الباحثين تماماً في دراسة كتابه والإفادة منه.

خامساً: من مميزات الحركة الصليبية؛ اتساع رؤية المؤرخ الرائد سعيد عبد الفتاح عاشور على نحو جعله يمتد بالصليبيات إلى عام ١٤٩٢م(١٠)؛ وهو عام سقوط آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس؛ وأعني بها غرناطة عام ١٤٩٢م، وهكذا، لم يقصر دراسته للحروب الصليبية على سقوط عكا عام ١٢٩١م، بل

إنه زاد الأمر من خلال دراسة قرنين كاملين من الصراع بين الشرق والغرب مما أعطى كتابه ميزة أخرى تضاف للمميزات العديدة التي توافرت له.

سادساً: بعد القسم الخاص ببواعث الحروب الصليبية(١١) الذي وضعه المؤلف في صدر كتابه، حيث حددها من خلال الباعث الديني، والباعث الاقتصادي، والباعث الاجتماعي، والباعث السياسي، أمرًا مهماً للغاية، وقد جاء عرضه عميقاً ومتوازناً وسلساً على نحو يدعو للإعجاب من ذلك الاقتدار العجيب على الإمساك بكافة دوافع تلك الحركة البارزة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى وإدراك الترابط العضوي القوي بينها دونما تناقض.

لا جدال في أن القسم المذكور والذي كتبه في أوائل ستينيات القرن الماضي يؤكد على أن مؤرخنا كان بنيوياً في توجهاته، وباحثاً عن الدوافع الحقيقية للحدث التاريخي، ولم يكن معنياً فقط به كحدث لذاته، بل استقصى جذوره من أجل فهمه على نحو أكثر عمقاً.

سابعاً: من الملاحظ أن مؤرخنا الرائد لم يقع في دائرة تصوير الحروب الصليبية من خلال الصراع على شرقي البحر المتوسط Levant فقط، بل أدرك أن الصراع كان أوروبياً آسيوياً وكانت منطقة البحر المتوسط أحد مظاهر ذلك الصراع، لذلك أدرك الصلة الجغرافية والتاريخية القوية بين أحداث غربية وشرقية، لذلك وجدناه يهتم بما حدث من صراع في الأندلس قبيل إندلاع الصليبيات في الشرق، واستمر يتابع ما يحدث هناك من خلال فعاليات حركة الاسترداد الأسبانية The Spanish Reconquesta وصولاً إلى إخراج المسلمين من آخر معاقلهم في غرناطة عام ١٤٩١م، وبالتالي يكون قد أدرك الصلة بين الجناح الشرقي والغربي للحركة الصليبية على نحو دعم رؤيته التاريخية العميقة لحجم الصراع بين عالمي الإسلام والمسيحية في العصور

الوسطى، وبالتالي أكد إدراكه العميق لطبيعة الحركة الصليبية كظاهرة بحر متوسطية خلال تلك المرحلة قبل إنطلاقها نحو بحر البلطيق في القرن الثالث عشر الميلادي.

من جهة أخرى، علينا البحث عن العوامل التي مكنت أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور من إعداد هذا الكتاب الرائد، ومن الممكن إجمالها هي الأخرى على النحو التالي:

أولاً: البيئة العلمية التي نشأ فيها، وإتقانه للعربية والإنجليزية والفرنسية، واتساع ثقافته وهو أمر ندركه تماماً من خلال أسلوبه في معالجة قضايا الصراع الدولي في العصور الوسطى، على نحو جعله يكتب من خلال أسلوب ومنهاج فكري قائم بذاته لم يقلد فيه أحداً، ومن هنا جاء التميز.

ثانياً: تأثره بأستاذه أ.د. محمد مصطفى زيادة الذي رجحت في بحث سابق عنه أنه أوعز لتلميذه بأمر تأليف كتاب مفصل عن الحروب الصليبية(١٢)، وقد درس سعيد عبد الفتاح عاشور قيرس والحروب الصليبية تحت إشرافه، وأفاد من المصادر الغربية، كما أن دراسته عن المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك أفادته في التعامل مع المصادر العربية عن تلك الحروب، وهكذا، فالحركة الصليبية عمل علمي يقف وراءه جهد وخبرة سعيد عبد الفتاح عاشور وخبرة أستاذه الرائد.

ومن وجهة نظري: افترض أن مؤلفه قد استشار أستاذه في العديد من نقاط موضوعه وأفاد من خبرته العلمية العريضة.

ثالثاً: ليس في مقدورنا فصل العمل العلمي المذكور عن العصر التاريخي ذاته، فقد ولد المؤلف عام ١٩٢٢م أي أنه ابن ثورة ١٩١٩م الخالدة، وعاصر كذلك ثورة ١٩٥٢م، كما عاصر العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م بقيادة إنجلترا

وفرنسا وربيبتهما إسرائيل، وقد خرجت مصر بقيادة جمال عبد الناصر منتصرة سياسياً بعد تلك الأحداث العسكرية والسياسية العاصفة. واسترد المصريون من بعدها قناتهم وكرامتهم، وفي ظل هذا الزخم القومي، كان إعداد جوزيف نسيم يوسف لكتابه الرائدة العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى عام ١٩٦٣م، تم إصدار سعيد عبد الفتاح عاشور كتابه الرائد الحركة الصليبية في نفس العام بعد صدور كتاب ذلك المؤرخ السكندري الرائد.

هكذا فإن الحركة الصليبية كعمل تاريخي موسوعي تتاح مؤلفه وعصره، وهو تعبير عن الشعور بالذات والوطنية المصرية، والقومية العربية ولذلك جاء هذا العمل ليوضح كيف كان الانتصار على العدوان الصليبي في العصور الوسطى مثلما انتصرت مصر – ومن خلفها شقيقاتها العربيات – على العدوان الغربي في العصر الحديث من خلال قضية قناة السويس.

لقد صدر كتاب الحركة الصليبية عام ١٩٦٣م، بعد (٧) سنوات فقط من حدوث العدوان الثلاثي الغاشم، وقد قرر المؤلف نفسه استغراقه خمس سنوات(١٣) في إعداده أي أنه شرع في تأليفه عام ١٩٥٨م في أعقاب ذلك العدوان بعامين، مما دل على أننا أمام مؤرخ انفعل بأحداث عصره على نحو أفاده تماماً في التعامل مع تلك المرحلة الفارقة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.

ولا أدل على ارتباط المؤلف بظروف عصره، من ربطه بين الغزو الصليبي لفلسطين في العصور الوسطى، والغزو الصهيوني لها في العصر الحديث، ولذلك نجده يقرر ما نصه: "فإذا كنا نقف اليوم وجهاً لوجه أمام خطر إسرائيل التي أقامها الاستعمار في أرض فلسطين والتي يحرص الغرب دائماً على مساندتها، وإمدادها بالمال والسلاح والرجال ليمكنها من المضي في غيها وعدوانها؛ فإن أجدادنا في نهاية القرن الحادي عشر وجدوا أنفسهم

أمام دولة غريبة قامت في البقعة نفسها من أرض الشام، وحرص الغرب أيضاً على تزويدها بالرجال والسلاح والمساعدات ليضمن لها البقاء والاستمرار"(١٤).

وهكذا، نجد مؤرخنا الرائد لا ينفصل عن قضايا الصراع العربي الإسرائيلي، وكأنه يريد القول أن تجربة الصراع ضد الصليبيين في العصور الوسطى، يمكن أن تضيء لنا الطريق في التعامل مع الخطر الصهيوني، على نحو يدعم الافتراض بأن ذلك الأمر كان من الدوافع التي دفعته نحو تأليف كتابه الرائد المذكور بصورة ترجح عدم انفصاله عن الواقع الذي عاشه ذلك المؤرخ البارز، وبالتالي نقرر تسخيره لقلمه من أجل إصدار كتابه دعماً لقضية العرب والمسلمين.

رابعاً: إتجه مؤرخنا الرائد إلى دراسة الحركة الصليبية كنتاج طبيعي لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى، وكان محيطاً تماماً بالتطور التاريخي للغرب الأوروبي وكذلك الشرق البيزنطي منذ القرن الرابع الميلادي وصولاً إلى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

وبالتالي أعطى هذا كتابه ميزة بارزة؛ إذ أن تلك الحركة الكبرى في تاريخ العصور الوسطى، لا تدرس إلا من خلال الأرضية الأوروبية بكافة أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي انطلقت منها، وأدى هذا إلى تقليل الفجوة في التعامل مع تاريخ الصليبيات بين المؤرخين المصريين المحدثين والأوروبيين مع احتفاظه بهويته المصرية العربية دون أن يتغرب وهذا هو الأمر المحوري المهم فلم يتأورب ولم يتأمرك.

وهكذا جاء كتابه معبراً حقيقياً عن صدام الغرب الأوروبي بالشرق الإسلامي في ذلك العصر الصاخب الأحداث، وإن كان الشرق انتصر على الغرب حضارياً في نهاية المطاف وهو ما أثبته مؤرخنا في تلك الدراسة الموسعة.

كذلك لا نغفل اهتمام مؤرخنا ببعض الأعلام البارزين من قادة المسلمين عصر الحروب الصليبية ولذلك خصص دراسة له عن صلاح الدين الأيوبي(١٥) (١١٧١-١١٩٣م)، وأخرى عن الظاهر بيبرس(١٦) (١٢٦٠-١٢٧٧م)، وجاءت الأولى أكثر تفصيلاً مقارنةً بالثانية، وقد نُشِرا في سلسلة واحدة هي أعلام العرب التي كانت تصدر بالقاهرة في الستينيات بأسعار زهيدة في عهد جمال عبد الناصر الذي سعى إلى اشتراكية الثقافة.

الأمر المؤكد أن المرحلة من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٥م كانت بالغة الثراء العلمي في حياة ذلك المؤرخ الرائد حيث أصدر الحركة الصليبية، والظاهر بيبرس في عام ١٩٦٣م، ثم كتابه عن صلاح الدين الأيوبي عام ١٩٦٥م، ومن المنطقي تصور اتجاهه للتأليف عن الفارسين البارزين المذكورين بعد أن درس دورهما من خلال كتابه الحركة الصليبية.

من جهة أخرى، أدرك مؤرخنا أهمية الجغرافيا ودورها في توجيه التاريخ، وأن التاريخ ذاته ما هو إلا الصراع على الجغرافيا، ولذلك خصص دراسة رائدة عن جزيرة قبرص Cyprus ودورها في تاريخ الحروب الصليبية بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجى قبالة الساحل الشامي، ولذلك حرص الصليبيون على الاستيلاء عليها خلال أحداث ما عرف بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م)، وقد قرر أنه لا مغالاة في القول أن دخول قبرص دائرة الحروب الصليبية عن طريق الفتح كان أهم ما نتج عن الحملة الصليبية الثالثة من نتائج، فالشرق اللاتيني الذي أراد له صلاح الدين الأيوبي أن يلقى به في مياه البحر المتوسط، قُدر له أن يحيا مرة أخرى على شواطئ الجزيرة القبرصية(١٧).

بصفة عامة، يعد ذلك المؤرخ أول من خصص دراسة أكاديمية عربية عن تلك الجزيرة، وفيما بعد أعد الزميل د. عاطف مرقص أطروحة للدكتوراه عنها(١٨)،

وناقشه فيها مؤرخنا الرائد وأظهر تقديره الوافر لصاحبها، ويلاحظ أنها كانت تحت إشراف أ.د. إسحاق عبيد.

لا نغفل هنا ملاحظة، أننا عندما نقارن بين الحركة الصليبية، وكتاب آخر ضخم ألفه أ.د. السيد الباز العريني(١٩) بعنوان الشرق الأوسط والحروب الصليبية؛ نجد أن الكتاب الأول يتفوق على الثاني مرات ومرات، إذ أن مؤلف الشرق الأوسط – مع تقديري التام لجهده – غلب عليه عمل المترجم أكثر من المؤلف، واهتم بالسرد أكثر من التحليل، فجاء عمله يفتقد إلى روح المؤرخ، ويلاحظ أن الباحثين في مجال الحروب الصليبية يتذكرون له ترجمته القيمة لكتاب السير ستيفن رنسيمان تحت عنوان تاريخ الحروب الصليبية في (٣) مجلدات ضخمة، وبالتالي غلب عليه عمل المترجم أكثر من المؤلف.

هكذا، نجد أن كتاب الحركة الصليبية يتفوق بجدارة على عمل علمي صدر في نفس عام صدوره من زميل آخر لسعيد عبد الفتاح عاشور.

من جهة أخرى، أرجح أن "الحركة الصليبية" جاء جزءاً من مشروع علمي بارز وطويل الأجل عاش أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور من أجل تحقيقه، ومن الممكن في يسر استنتاج هذا الأمر من خلال تأمل مجمل مؤلفات ذلك المؤرخ، الذي نلاحظ تماماً أنه لم يسع إلى إصدار بحوث وكتب من أجل الترقية إلى درجة الأستاذية، بل إنه كان من صاحب مشروع كما ذكرت وكذلك رسالة، وبالتالي قدم نموذجاً يُحتذى به، وبالتالي اختلف عن جيل أساتذة هذا الزمان الذين في أغلبهم سعوا إلى الحصول على "الدرجة"، ولم يقدموا لأمتهم عطاءً علمياً خالصاً إلا القلة القليلة حتى لا نقع في مأزق التعميم الذي يؤدي بنا إلى نتائج خاطئة وأبعد ما تكون عن الواقع التاريخي المعاش.

بطبيعة الحال، لا يعني أمر الصفحات السابقة، عدم وجود بعض وجهات النظر التي نختلف فيها مع المؤرخ الرائد، والتي لم ولا ولن تقلل من قيمة كتابه الذي

هو المرجع العربي الأول في مجال تاريخ الحروب الصليبية. ومن الممكن توضيح تلك الزاوية من خلال التالي:

أولاً: لم يتم تسليط الأضواء الكاشفة على الباعث التنصيري الذي يعد من أهم دوافع الحركة الصليبية، حيث حرصت كنيسة روما الكاثوليكية على تحويل مسلمي الشرق الأدنى عن الإسلام وجعلهم يتبعونها، ولعل السبب في إغفال مؤرخنا لذلك الأمر، أن موضوع التنصير درس متأخراً في الغرب خاصة من خلال دراسة المؤرخ بنيامين كيدار Benjamin Kedar في دراسته عن الحرب الصليبية والتبشير(٢٠) . دون إغفال مقالات وبحوث أخرى صدرت في نفس المجال.

ثانياً: خصص مؤرخنا الرائد صفحات محدودة للجانب الحضاري، وهو أمر نلاحظه خلال الفصل الأول من الباب التاسع الذي جاء بعنوان: حياة الصليبيين ونظمهم في الشام، وقد وقع في حيز محدود للغاية على حين كان للجانبين السياسي والعسكري نصيب الأسد في معالجة مؤرخنا من خلال كتابه الموسوعي المذكور.

ومع ذلك، وإحقاقاً للحق، حرص ذلك المؤرخ الرائد على أن يقدم لتلاميذه من طلاب الدراسات العليا موضوعات لرسائلهم لدرجتي الماجستير والدكتوراه تغطي الجانب المذكور. ومن أمثلتهم: عبد الحفيظ محمد علي(٢١)، وأحمد رمضان أحمد(٢٢)، ومحمود الحويرى(٢٣)، وكان لهم دورهم البارز في تكوين مدارس خاصة بهم خاصة في مجال تاريخ الحروب الصليبية.

ثالثاً: كان هناك – في أحيان قليلة للغاية – إيراد بعض الآراء اعتماداً على المراجع الفرنسية لا تتفق مع الواقع التاريخي، ومن أمثلة ذلك عند حديثه عن معركة أرسوف التي وقعت في ٧ سبتمبر عام ١١٩١م، والتي هزم فيها ريتشارد قلب الأسد Richard Lionhearted (١١٨٩-١١٩٩م) صلاح الدين الأيوبي

(١١٧١-١١٩٣م)، قال ما نصه: "ويتخذ المؤرخون موقعة أرسوف سنة ١١٩١ نقطة تحول في تاريخ الحرب الصليبية، لأنها تشير إلى أن تيار الحرب الذي استمر في صالح المسلمين بالشام منذ سنة ١١٧٠، بدأ يتحول بعد أرسوف – ولمدة ستين سنة – أي في سنة ١٢٥٠ تقريباً، في صالح الصليبيين،(٢٤)، وقد جعل مؤرخنا الفاضل مرجعه المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه، وواقع الأمر أن هذا الرأي فيه مبالغة واضحة؛ لأن المعركة المذكورة(٢٥) لم تكن حاسمة، ولم تؤد إلى تدمير الجيش الأيوبي الذي ظل محتفظاً بقدراته العسكرية، بل أن المؤرخ البريطاني الشهير هاملتون جب أقر صراحةً بأنها لم تكون معركة حاسمة(٢٦)، ولا يمكن مقارنتها البتة بمعركة حطين الفاصلة التي وقعت في ٤ يوليو ١١٨٧م والتي أدت إلى القضاء على الجيش الصليبي الذي وقع بين قتيل وجريح وأسير، وفى أعقابها وتم فتح بيت المقدس في ٢ أكتوبر ١١٨٧م، ومن بعدها تم إسقاط القلاع الصليبية Crusader Castles وفتح مدن الساحل الشامي مما أكد أنها بالفعل معركة حاسمة.

رابعاً: جاء الكتاب خالياً من دراسة نقدية تحليلية لمصادر تاريخ الحروب الصليبية سواءً في الشرق أو الغرب، وكان من شأن وجودها معاونة الباحثين في التعريف بالمؤرخين المعاصرين والمتأخرين لتلك الظاهرة التاريخية الكبرى في العصور الوسطى، ومن هنا جاء تفرد مؤرخ مصري آخر في صورة أ.د. جوزيف نسيم يوسف الذي خصص نحو (٣٠) صفحة من كتابه الرائد "العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى"، من أجل نقد مصادر تاريخ تلك الحملة فكان رائداً في هذا الشأن.

ومع ذلك من الإنصاف القول أن المؤرخ الرائد أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور جعل طلاب الدراسات العليا الذين أشرف عليهم، يخصصون قسماً من صدر

رسائلهم من أجل فقد المصادر التاريخية التي تناولت موضوعاتهم، مما يدل على ضرورة عدم الفصل بين كتابه الموسوعي الحركة الصليبية، وإسهام تلاميذه الذين أعدوا رسائلهم للماجستير والدكتوراه حيث أنهم مثلوا امتداداً علمياً له.

خامساً: من الملاحظ أن عنوان الكتاب ذاته: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى قد تأثر فيه مؤلفه بالمد القومي حينذاك، وكان الأفضل أن يكون العنوان "الجهاد الإسلامي"، وللإنصاف، تدارك مؤرخنا الراحل البارز الأمر فصدرت طبعة متأخرة بالعنوان التالي:

"الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى". وبالتالي يكون العنوان النهائي الذي استقر عليه مؤلفه قبل وفاته بعدة أعوام.

بصفة عامة، تؤكد الملاحظات اليسيرة المذكورة صلابة ذلك العمل العلمي الذي نقرأه الآن عام ٢٠١٥م ونكاد لا نصدق أنه ظل صلباً طوال ما زاد على نصف قرن من عمر الزمان بصورة تؤكد أننا فعلاً أمام مؤرخ رائد عاشق لعمله العلمي فكان إنجازه بهذه الصورة التي تتجدد مع تعاقب الأعوام.

خلص البحث إلى عدة نتائج يمكن إيرادها على النحو التالي:

أولاً: يعد أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٢٢-٢٠٠٩م) مؤرخاً مصرياً رائداً في مجال تاريخ الحروب الصليبية، وقد احتل كتابه العمدة "الحركة الصليبية" مكانة بارزة منذ صدوره عام ١٩٦٣م حتى كتابة هذه السطور دون إغفال أهمية مؤلفات مؤرخين رواد آخرين مثل أ.د. محمد مصطفى زيادة، أ.د. عمر كمال توفيق، أ.د. جوزيف نسيم يوسف، أ.د. حسن حبشي، والذي أصفهم

"بالمؤرخين الخمسة الرواد لتاريخ الحروب الصليبية"، وهكذا تتوالى طبعات ذلك الكتاب حتى بعد رحيل مؤلفه الرائد.

ثانياً: توافرت عدة عوامل شخصية، ووطنية، وقومية مكنت المؤرخ الرائد المذكور من تحقيق ذلك الإنجاز البارز في صورة أول كتاب موسوعي باللغة العربية عن الحروب الصليبية؛ مما دل على ريادته، وكذلك ريادة جامعة القاهرة التي تعد الجامعة الأم لكافة جامعات مصر والعالم العربي دون إغفال مؤرخين رواد آخرين انتسبوا إلى جامعات أخرى مثل الإسكندرية وعين شمس حيث تكمل كل جامعة من خلال باحثيها الجامعة الأخرى.

ثالثاً: تمثلت قيمة الكتاب المذكور في أن من المؤرخين المصريين من كتب تاريخ الحروب الصليبية، ولم يكن الأمر قاصراً على الغربيين – خاصةً من الفرنسيين– الذين أرخوا لتلك المرحلة من خلال وجهات نظرهم التي كانت تفيض بالتعصب وتمجيد قادتهم خلال مرحلة العصور الوسطى ممن شارك في تلك الحرب العالمية حينذاك، وبالتالي تم تقديم وجهة نظر شرقية من الطرف الذي تعرض للغزو الصليبي وكان ذلك المؤرخ يقول: آن الأوان لنكتب تاريخنا بأقلامنا لا بأقلام أبناء الغرب.

رابعاً: من الخطأ البين التعامل مع إسهام أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور من خلال المؤرخ الفرد، بل من خلال روح العصر التاريخي ذاته، وظهور عدد من المؤرخين الرواد الذين سلطوا الأضواء الكاشفة على تاريخ الحروب الصليبية من خلال ما عرف بإبداع الستينيات في مصر وهي مرحلة من أخصب مراحل الإبداع الفكري التي شهدتها أرض النيل حينذاك. وفي هذا المجال من الإنصاف الإقرار بأن المؤرخ السكندري الراحل أ.د. عمر كمال توفيق كان أول من تحدث عن مصطلح "الحركة الصليبية" وفصله في كتابه بعنوان: "مملكة بيت المقدس الصليبية"، وقد صدر عام ١٩٥٨م(٢٦) ، وأفاد منه

مؤرخنا الرائد أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور، وجعله عنواناً لأشهر كتاب موسوعي بالعربية عن تاريخ الحروب الصليبية على نحو يؤكد على أن كل مؤرخ من أولئك المؤرخين الرواد كان يكمل عمل الآخر، وبالتالي كانوا بمثابة فريق عمل متعاون من أجل تقديم رؤية مصرية عربية لتاريخ الصليبيات عاشت من بعد رحيلهم عقوداً ممتدة.

خامساً: تبقى زاوية أخيرة مهمة، فالملاحظ عدم اتبعاث أ.د. سعيد عاشور إلى أية جامعة أوروبية، بل درس تحت إشراف من درس في جامعة ليفربول، على نحو يؤكد أن القضية تتمثل في نوعية الباحث ذاته، إذ هناك من الذين ابتعثوا إلى الغرب ولم يكونوا أصحاب رسالة علمية فلم يفعلوا في مجال دراسات تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وعلاقاتها بالشرق ما فعله ذلك المؤرخ الرائد في كتابه الحركة الصليبية.

خلاصة القول، يعد المؤرخ الرائد أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور – وبحق – المؤرخ الذي مهد الطريق لكافة المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية في كافة أنحاء العالم العربي، من خلال مؤلفاته الرائدة في المجال المذكور وفي صدارتها كتابه الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى.

ذلك عرض عن أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٢٢-٢٠٠٩م) مؤرخاً للحروب الصليبية.

الهوامش

(١) عن سعيد عبد الفتاح عاشور أنظر : مجموعة من الباحثين . سعيد عاشور إليه في عيد ميلاده السبعين ، ط. القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص (ب) – ص (د) من المقدمة . محمد مؤنس عوض ، رواد تاريخ العصور الوسطي في مصر ، سلسلة تاريخ المصريين ، ط القاهرة ٢٠٠٧م ، ص ٨٨ – ص ١٠٣ ، نفسه، ستيفن رنسيمان وكتابه تاريخ الحروب الصليبية وسعيد عاشور وكتابه الحركة الصليبية .. رؤية مقارنة ، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن، ط. القاهرة ٢٠٠٩ م ، ص ٢٨٠ – ص ٢٨٣.

(٢) عنه أنظر :

محمد مؤنس عوض ، رواد تاريخ العصور الوسطي، ص ١٤٣ – ص ١٥٢ نفسه. محمد مصطفى زيادة (١٩٠٠ . ١٩٦٨م) مؤرخاً للحروب الصليبية ، مجلة بحوث الشرق الأوسط ، عدد عام ٢٠١٨م.

(٣) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ط ، القاهرة ١٩٦١ م . ص .١-٢

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطي، ص ١ ، ط١ القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٣ .

(٥) نفسه ، ص ٧٥٢.

(٦) نفسه ، ص ١٢٨٥ – ١٢٩٦.

(٧) نفسه ، ص ١٢٩٧ – ١٣٠٨.

(٨) نفسه ، ص ١٣٠٩ – ص ١٣٢٧ .

(٩) نفسه ، ص ١٣٤٣ ، ص ١٤٠١.

(١٠) نفسه ، ص ١٢٥٧ .

(١١) نفسه ، ص ٢٧ ، ص ٤٣.

(١٢) محمد مؤنس عوض أ.د. محمد مصطفى زيادة (١٩٠٠ – ١٩٦٨م) مؤرخاً للحروب الصليبية بحث مقدم للنشر فى مجلة بحوث الشرق الأوسط ، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس عام ٢٠١٨م.

(١٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ط١ ، ص ١٢ .

(١٤) نفسه ، ص ٦ .

(١٥) عن صلاح الدين الأيوبى أنظر :

بهاء الدين بن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تخليق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ، ١٩٦٤م.

العماد الأصفهانى ، الفتح القسي فى الفتح القوس ، تحقيق محمد محمود صبيح ، ط١ القاهرة ١٩٦٥ م ، جلال طه أبو بكر ، صلاح الدين الأيوبي أسد القارتين ، ط ، بغداد ١٩٦٧م ، محمد مؤنس عوض ، صلاح الدين الأيوبى وعصر – مدخل ببليوغرافى ، ط. رام الله ٢٠١٥م، فرانشيسكو غابريللى ، المؤرخون العرب للحروب الصليبية ت. نبيل رضا المهاينى ، ط ، بيروت ٢٠١٥م ، ص ١٢٧ ، ص ٢٥٦.

A. Tariq, The Book of Saladin, A Novel, London, 1999.

J. Jubb, The legend of Saladin in Western Literature and historiography, New York, 2000.

S. Lane-Poole, Saladin and The Fall of The Kingdom of Jerusalem, Kuala Lumpur, 2002.

A.M. Sallabi, Salah ad. Deen Al-Ayubi, 3 vols, Trans. Nasiruddin Al-Khattab, Riyadh, 2008-2010.

A. Mrie Edde, Saladin, Paris, 2011.

وهناك مئات الدراسات بالعديد من لغات العالم عن ذلك السلطان المجاهد.

(١٦) عن الظاهر بيبرس أنظر :

سيرة الظاهر بيبرس . ط. بيروت ب . ت، ابن عبد الظاهر . الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، ط. الرياض ١٩٧٦م ، شافع بن على ، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، . تحقيق عبد العزيز الخويطر ، ط ، الرياض ١٩٧٦م . عز الدين ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، بإعتناء أحمد حطيط ، ط. بيروت ١٩٨٣م ، محمد جمال الدين سرور، الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، ط . القاهرة ١٩٣٨م . عبد العزيز الخويط ، الملك الطاهر بيبرس، ط. الرياض ١٩٨٩م ، محمد مؤنس عوض . الظاهر، ط القاهرة ٢٠٠٨م ، بيتر توراو ، الظاهر بيبرس إسهام فى تاريخ الشرق الأدنى فى القرن الثالث عشر أن . محمد جديد، ط. دمشق ، ٢٠٠١م. ترجمة أخرى ، بيتر توارو، أسد مصر السلطان الظاهر بيبرس والشرق الأدنى ، ت. قاسم عبده قاسم ، ط. القاهرة ٢٠١٥م.

P.M. Holt, "Baybar's Treaty with The Lady of Beirut in 667/1269", in Crusade and Settlement, ed. P. Edbury Cardiff 1985.

U. Vermculer, "Le Traite d'Armistice entre Le Sultan Baybars et Les Hospitaliers de Hisn Al-Akrad et Al Margab (4 Ramadan 665/29 Mai 1267", O.L.P. IXX, 1988, pp. 189-195.

(١٧) سعيد عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ط٠ القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٩١.

أيضا محمد مؤنس عوض ، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ، ط١ القاهرة ، ١٩٩٩ ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٣٢.

(١٨) عن ذلك أنظر :

عاطف مرقص، قبرص والحروب الصليبية فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآدب ، جامعة عين شمس ، عام ١٩٩١م.

وعن قبرص بصفة عامة أنظر :

بيتر إدبيوري، قبرص والحروب الصليبية، ط. قبرص ١٩٩٧م.

G. Hill, History of Cyprus, 3 vols, Cambridge 1940.

P. Edbury, The Kingdom of Cyprus and The Crusades, 1191-1374, Cambridge 1981

(١٩) عنه أنظر: محمد مؤنس عوض، رواد تاريخ العصور الوسطى، ص ١٠٤- ص١١٠.

(٢٠) عن ذلك أنظر:

B. Kedar, Crusade and Mission, European Approaches to Muslims, Princeton 1985.

وعن التنصير عصر الحروب الصليبية بصفة عامة أنظر:

أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حنا، ط. بيروت ١٩٨١م، ص ١٦٨، ابن جبير، الرحلة، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص ٢٨١.

M. Baldwin, "Mission to The East in The Thirteenth and Fourteenth Centuries", in A History of The Crusades, ed. K. Setton, Vol. V, Pennsylvania 1985, 452-518.

S. Zwemer, Raymord Lull, First Missionary to The Moslems, London, 1902.

حسن عبد الوهاب ، المحاولات التبشيرية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية ، م (٣٨) عام ١٩٩٠مK

محمد مؤنس عوض المسيحية والإسلام بين الاعتناق والارتداد عصر الحروب الصليبية ضمن كتاب الحروب الصليبية السياسية ، المياه ، العقيدة، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص ٩١ ، ص ١١٧، محمد المقدم. الجهود التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في المنطقة العربية في عصر الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة المنصورة عام ٢٠١٠م.

(٢١) انظر :

عبد الحفيظ محمد على ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى في القرنين ١٢. ١٣م ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م (الدراسة المذكورة رائدة فى مجالها ولم تنشر إلى الآن !!).

(٢٢) أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

(٢٣) محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام في القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (عصر الحروب الصليبية) ، ط. القاهرة ١٩٧٩م (دراسة رائدة لأحد أفضل تلاميذ أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور) .

(٢٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ط٢ ، ص ٨٧٦.

(٢٥) عن معركة أرسوف أنظر :

أبن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط٢ ، ط القاهرة ١٩٥٣ م ، ص ١٩١.

Ambroise, The Crusade of Richard Heart of Lion, Trans. Hubert, New York, 1943.

Geoffrey of Vinsauf, Crusade of Richard Coeur de Lion, in Chronicles of The Crusades, London, 1908, p. 231.

C. Oman, A History of The art of War in The Middle Ages, Vol. I, London, 1924, p. 317.

محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامي ، الصليبي معركة أرسوف (١١٩١ – ٥٨٧هـ) K ط. القاهرة . ١٩٩٧م ، طارق البستاني ، المعارك بين المسلمين والصليبين منذ سقوط عطا حتى صلح الرملة ١١٩١ – ١١٩٢م/ ٥٨٧ – ٥٨٨هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية عام ٢٠٠٩م ، ص ٦١ ، ص ٧٠. زين العقاد ، إقطاعية أرسوف فى العهد الفرنجى ٤٩٤ – ٦٦٣ هـ / ١١٠١ – ١٢٦٤م ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس عام ١٩٩٦م.

(26) H. Gibb, The Life of Saladin, Oxford 1973, p. 71.

(٢٧) عن ذلك أنظر:

محمد مؤنس عوض، أ.د. عمر كمال توفيق مؤرخاً للحروب الصليبية، بحث مقدم للنشر في مجلة بحوث الشرق الأوسط – مركز بحوث الشرق الأوسط – جامعة عين شمس عام ٢٠١٥م.